ولا تحترم حرمتها ، ولا تكترث لتاريخها ، مادامت تلعب بالدولار . وامل اليهود هناك يعتقدون أنهم هم الذين سكّوا الدولار المعدني وطبعوا الدولار الورقي . فهم يوسخون وعلى الشعب الأمريكي أن ينظف !

انكلترا وأمريكا مسؤولتان في الدرجة الأولى ، ويهود العالم كله مسؤولون في الدرجة الثانية ، فهم مسؤولون لأن يهود الصهيونية هم الذين نهبوا وفلّحوا وقتلوا وشرّدوا العرب ، ولأنهم كانوا يؤيّدون هؤلاء المجرمين بملايين الدولارات . ولكن من يرغم هؤلاء اليهود على التعويض وعلى العرب وعلى قبولهم رغم أنوفهم في بلادهم ؟

قالوا : إن مجلس الأمن المسؤول عن الأمن العالمي هو الذي يرغم اليهود على التعويض وعلى القبول — قبول العرب .

ولكن المصيبة الأخيرة جاءت من يد مجلس الأمن ، فإذا كانت انكلترا — وهي المسلّحة — تجثو أمام سحر اليهود ، فمجلس الأمن — وهو بلا سلاح البتة — لا يستطيع أن يهز رعباً في وجه الصهيونيين ، فهو كالدجاجة ، وهي بلا براثن ولا أنياب أمام السباع والذئاب ... فإذاً ، انكلترا أولا ، ثم أمريكا الانجلوسكسونية ثانياً — هؤلاء هم المسؤولون عن نكبة عرب فلسطين أمام الله ، وأمام التاريخ ، وأمام العالم ... ولكن إذا كانوا لا يخافون الله ، ولا يحترمون التاريخ ، والعالم كله مثلهم لا يخاف الله ولا يبالي بالتاريخ ... فلمن نشكو أمرنا ؟ !

لا نشكو أمرنا إلا للعرب أنفسهم ، فإن كانت عندهم بقية من مروءة العرب التي طالما تبجحنا بها فالنجدة يا قوم ... وإلا فليقرأ كل عربي — من الوزير إلى الصغير — ما لقنه أحد الشقيري بك مستشار الوفد السوري أمام لجنة التوفيق الدولية بعد عودته من لوزان لمندوب جريدة المصري في يوم ١٦ سبتمبر ، لكي يعلم ما يبيته اليهود للعرب جميعاً من الشر . فلعلهم يتحمسون للدفاع عن أنفسهم قبل أن يحدث لهم ما حدث لعرب فلسطين ، ويتشردوا في الصحاري والبحار فيموتون ظمأً ثم غرقاً ... وكل آت قريب ...

نصوح الحمار

٢ ش البورصة الجديدة بالقاهرة

مشاهد الماضي :

على طريق الحملات المصرية

في لبنان

أيام دولة سلاطين المماليك البحرية

للأستاذ أحمد رمزي بك

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

ثلاثة من سلاطين مصر العظام يبدو عملهم خالداً أمام الزمن في هذه البقعة من الأرض : الملك الظاهر بيبرس صاحب الفتوحات الكبرى ، ثم المنصور قلاوون الذي حاصر مدينة طرابلس ستة وعشرين يوماً ثم فتحها بالسيف ، وأخيراً الأشرف خليل بن قلاوون صاحب الفتح الأشرف من الممالك الساحلية والجبلية وهو الذي بقي لمدة قرون والناس يؤرّخون في لبنان الحوادث على ذكره وتأتي هذه الحملات في عهد الناصر محمد تكملة لتلك الفتوحات .

ولكن الباحث في تاريخها يسير دائماً في المراجع التي بين أيدينا وهو يتلمس الأسماء والواقع وسط الضباب التي يُقيمها المعاصرون والمؤرخون والنساخ . فهناك طائفة من أسماء البلاد والمقاطعات تغيرت مواضعها مع الزمن أو تبدّلت حدودها ، ومع اعتمادي على الخرائط التفصيلية التي وضعتها القيادة الفرنسية مدة عهد الانتداب ، ومع أنني زُرت أغلب المناطق لمدة مرّات أراني أحياناً وسط بحر واسع الأطراف في المسائل التي تحتاج إلى تحقيق ، أراني أخوض فأوفق في بعض الشيء ولا أوفق في البعض الآخر فأتركه ليتمكن غيري من تحقيقه .

ويحصل الخطأ في النقل من النسخ التي بين أيدينا ، أو في عدم اعتناء المؤرخين عند كلامهم على الحوادث فيطلقون أسماء عامة مثل جبال الجرد والكسروان من غير تحديد .

فقد جاء ذكر بعض الحملات في الجزء الشمالي الجبلي الواقع بين الممالك الساحلية والممالك البطيخية : والمعروف أن كسروان هو

الاقليم الجبلى الذى تقع فيه مدينة «بسكنتا» وهى التى كانت تسمى قديماً باسم « العاصية » لصعوبة مسالكها والمرور إليها من وادى الجاجم . ومع أنها قسمان فى التقسيم القديم داخلة وخارجة . فالداخلة حدها من نهر الكلب إلى نهر إبراهيم ، والخارجة حدها القديم من نهر الكلب إلى الحد الفاصل بينها وبين مقاطعة المتن: وتمتد الحدود من البحر إلى الجبال : ومع علمنا بهذا التحديد يطلق المؤرخون اسم كسروان تساهلاً منهم على بقاع تقع فى الجزء الشمالى من هذه البقعة بالذات : ويتكرر هذا فى معظم من كتب بعد حوادث الفتوحات التى تمت فى عصر الملوك الثلاثة .

ولكن الدقق يجد أن الحوادث التى كانت مدينتا « أعدن » « وبشرى » مسرحاً لها تقع فى مقاطعة كانت تسمى باسم « جبة بشرى » فى هذا العهد ثم أصبحت « جبة الحدث » فى عهد قايتباى : وفى هذه الناحية بالذات مقاطعة كانت تسمى الضنية وهى ترد فى كتب المؤرخين باسم جبال الضنيين : ولقد اعتمدت فى تحقيق هذا الاسم على مصدرين :

الأول : هو ما ورد فى وثيقة الهدنة التى عقدها الملك المنصور قلاوون صاحب مصر مع جماعة الاسبتار وبيت طوابلس (٦٨١هـ ١٢٨٠ م[1]) .

الثانى : ما جاء فى كتاب الشيخ طدوس بن يوسف الشدياق[2]

جاء فى عقد الهدنة ذكر بلاد السلطان الملك المنصور : « ما هو مجاور لطرابلس ومحادد لها من المملكة البلبكية جميعها وجبالها وقراها الرحلية[3] والجبلية وجبال الضنيين »

وجاء فى المرجع الثانى : « لما قدمت الفرنج من إنطاكية سنة ١٠٩٩ ، وفد إليهم أناس من المردة من جبل سير وصقع الضنية » . فجبال الضنيين هى إقليم أو صقع الضنية الذى أشرنا إليه والواقع فى الجزء الشمالى من إقليم جبة بشرى وهذا الإقليم ينحدر من أرز لبنان إلى سير ثم إلى طرابلس.

ومن هذا نعلم أن ذكر «أعدن» و«بشرى» فى إحدى الحلات لا يجعل لكسروان شأناً وبينها وهذه البلاد مناطق : أو قطاعات كانت تسمى باسم بلاد واقعة على الساحل أو فى الجبال كما يتضح ذلك من وثيقة الهدنة نفسها .

فقد جاء فيها عند الكلام على بلاد الفرنجة أى الأفرنس صاحب طرابلس ما يأتى :

طرابلس وما هو داخل بها ومحسوب عليها . أنقة وبلادها . جبيل وبلادها . صنم جبيل وبلادها (وأرجح أم جبيل) . البترون وبلادها (وكلها على الساحل) وضع هذا النص من قصد — ثم عرقا وعدتها ٥١ ناحية .

وما هو للفارس روجار دى لالاولاى من قبلى طرابلس .

أقول إننا إذن فى حاجة ماسة إلى جمع نصوص الوثائق المملوكية من عقود الهدنة والصلح الموزعة فى الكتب وتحقيق كلماتها حتى تراجع مراجعة صحيحة لكى نستفيد من محتوياتها : هذا علاوة على المراسيم الخاصة بولاية العهد أو الصادرة بتولية الأمراء أو بالإقطاعات : ومن بعض هذه الوثائق يتضح مدى اتساع الأمبراطورية الإسلامية لمصر فى أزهى عصورها بلا استثناء وقد جاء فى نهاية عقد هدنة المنصور قلاوون « وما سيفتحه الله على يده ويد ولده وعساكرهما وجنودهما من الممالك والحصون » .

وقد تمت الفتوحات جميعاً حتى ذكر ابن الفرات « ولم يتأخر بالبلاد الشامية غير فلاحيها وهم داخلون فى الذمة » .

وأرجح أن الجزء الجنوبى من لبنان حيث كان يسكن أمراء الغرب من آل يحتر التنوخيين لم يتعرض لهذه الحملات ما عدا الجزء الشمالى، إذ المعروف أنهم كانوا حلفاء وأعوانا لملوك مصر[1] ابتداء من الدولة التركية المعزإيبك ، إذ جاء فى كتاب صالح بن يحيى ذكر منشور المعز إيبك للأمير سعد الدين خضر ، وجاء فيه أن الأمير زين الدين بن على وفد على السلطان قطز واشترك معارباً فى معركة عين جالوت لما قهر المصريون التتار ، وجاء فيه ذكر عدة مراسيم أرسلها الظاهر بيبرس إلى الأمراء وقال عنهم « الأمراء الثائرون على صيدا وبيروت » وكذلك ما صدر من ابنه الملك السعيد بركة خان ، ولم تكن صيدا وبيروت بيد المصريين فى ذلك الوقت . ويبدو مؤرخو الحروب الصليبية فى حيرة من موقف بعض الأمراء .

فالأب لويس شيخو يستخلص من حادثة معينة أن بعض الأمراء كان حليفاً للصليبيين فيقول إن أحد أعداء الأمراء المسمى

(١) ملحق ٦ للملوك طبع الدكتور زيادة :
(٢) طبع للعلم طرس البستان .
(٣) لولة الرحلية لايلهم وانما أرجع الرحلية : أى قرى بلدة زحلة.

(١) هكذا تتكلم الوثائق ولو كان التاريخ بيد هذه الطائفة لقال الأوربيون وقد تكون من عهد التاتاريين .

التنوخيه بأمرهم بحشد الجيوش لمحاربة كسروان وأهل الجبال جاء فيه « من نهب امرأة كانت له جارية أو صبياً كان له غلاماً ومن أتى منهم برأس مقتول كان له دينار لأن المذكورين كانوا نجدة الأفرنج » .

ويقول المطران الدبس نقلا عن الأسقف جبرائيل ابن القلاعي أن المركة دارت عند جبيل وأن المقدمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين مقدماً منهم خالد مقدم مشمش . سنان وسليمان مقدما إبليج . سعادة وسركيس مقدماً لحفد . عنتر مقدم العاقورة . بنيامين مقدم جردين . ويقول إنهم رتبوا ألفين مقاتلا كانوا على الفيدار وألفين على نهر الدفون .

ومن مراجعة وثيقة هدنة المنصور قلاوون يتبين لنا أن هذه البلاد واقعة خارج الجرد وكسروان بل هي داخل القطاع الواقع بين قطاع البترون وقطاع كسروان أو هي تكون ما أسميه قطاع جبيل الواقع بين موقع فيدار وبلدة البترون وتتوسطه مدينة جبيل ، ويرتفع إلى بلدة العاقورة في الجبال وبلدة تنورين أمامها وكانت ضمن أملاك صاحب طرابلس ولما زال حكم الصليبيين أصبح فتح هذه البلاد عيناً على المصريين ويقول صاحب تاريخ الأعيان بدون أن يذكر المصدر الذي استقى منه « حينئذ اندفقت سكان الجبال على جيوش الإسلام اندفاق الماء المنهمر » « واقتحم مقدم مشمش على قائد جيش الإسلام واحتز رأسه » « ووقعت الكرة على جيوش الإسلام وتمزقت منهم الكتائب والأعلام » .

ويصف ملاحقة الجبليين أمراء الغرب إلى عقر ديارهم وكيف قتل الأمير محمد وأخوه الأمير أحمد من أبناء محمد بن كرامة التنوخي وكيف أن المنتصرين زحفوا حتى أحرقوا بلاد عين صوفر وشملیخ وعين زوينة وبحطوش من قرى أمراء الغرب التنوخيين في الجرد الشمالي .

تلك هي رواية المراجع المسيحية من الحوادث التي تقدمت الحملة التي قادها الأمير جمال أقوش الأفرم سنة ٧٠٥ وانتهت إلى بما جاء في هذه المراجع بالنص « ثم أحاطت العساكر بتلك الجبال المنيعة وتوجلوا من خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات فأخربوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا الكنايس وقتلوا وأسروا جميع من فيها من الدرزية والنصرانية وزلت قلوب أهلها . » « ثم أمر جمال الدين أقوش أن تستقر التركمان في ساحل كسروان » ونشأت بذلك إمارة آل عساف وسكن التركمان بلدة ذوق ميكايل وحفظوا الدروب والمسالك ، ونظم الأمير جمال الدين الأفرم طريقة الاتصال بالنيران بين الساحل ودمشق : إذ كانت تقام شعلة فارق رأس بيروت ومنها إلى جبل بوارش ومنها إلى بيرس ومنها لجبل بالصالحية ثم إلى قلعة دمشق حتى تصل الأخبار في وقتها ، وترتب الحمام الزاجل بمحطاته وخيل البريد إلى دمشق عن ثلاث طرق ، وهكذا انقطع اتصال الأفرنج بأهل كسروان انقطاعا تاما ودخل أهل الجبال في طاعة ملوك مصر لما قامت الفتنة بين الظاهر برقوق والأمير بن الناصري ومنطاش انضم لعسكر الشام الدروز والتركمان وأهل كسروان والجرد من أهل لبنان ، ولما عاد برقوق للملك بعث بجند مصر إلى الساحل فأخضعت البلاد بأكملها وجاء في أخبار الأعيان أن الظاهر برقوق توجه بنفسه إلى بلدة بشرى فأقام يعقوب ابن أيوب مقدماً وكتب له صحيفة نحاسية ثم نزل إلى « دير قنوبين » حيث معاقل بطاركة الموارنة فأنعم على الدير العتيق بإعفائه من الأموال الأميرية بموجب صحيفة نحاسية .

وأعود فأقول بأن القطاع الشمالي من لبنان حيث يقع أرز لبنان كان خارجاً من نطاق الهدنة (بين قلاوون وصاحب طرابلس) كما قلنا وقبلك جاء في كتاب البطريرك اسطفانوس الدويهي إنه وجد في أرض الحدث بقرب دير القديس يوحنا كتاباً للصلاة مدوناً فيه ما يأتي عن فتح أعدن وبشرى :

إنه في سنة ١٢٨٣ أي بعد هدنة طرابلس التي تمت في أيام المنصور قلاوون بثلاثين « إن العساكر الإسلامية سارت إلى فتح جبة بشرى وصعدت إلى وادي حيرونا وحاصرت قريه أعدن وتم فتحها بعد أربعين يوماً وأخربت القلعة والحصن الذي على رأس الجبل » ولم يكن بوسع الأفرنج في طرابلس ولا جماعة الاسبتار تقديم المساعدة لأهل أعدن لارتباطهم بنصوص عقد الهدنة ولذلك أتم المصريون فتحها قبل سقوط القطاع — الكسرواني وقطاع جبيل في أيديهم . وقد رأيت كيف تمكن الظاهر برقوق بلباقته بعد قرن من الزمن أن يجذب قلوب هؤلاء السكان الأشاوس وأن ينقلهم من معسكر أعدائه إلى معسكر الخلفاء الأوفياء : فلله دره .

أما الأمير جمال الدين أقوش الأفرم نائب السلطنة فبقي بنيابة الشام حتى دخلت سنة ٧١١ لما نقله الملك الناصر محمد إلى نيابة طرابلس بإشارة الإمام ابن تيمية فبقي بها حتى انضم إلى قراسنقر وذهبا سوياً إلى بلاد التتار بعد أن أديا لمصر أكبر الخدم .

أحمد رمزي